

# الاستفهام القلق عن الله

## اختباراتي الشخصية مع أطروحات ريتشارد داوكينز الإلحادية

أليستر ماكغراث

لاهوتيّ وباحث في الفلسفة-إيرلندا الشماليّة

### ملخص إجمالي

يتحدّث اللاهوتيّ والمفكّر الإيرلنديّ أليستر ماكغراث عن اختباراته الذاتية في ما يتّصل تحديداً بالسؤال عن مغزى العلاقة بين الإيمان بوجود الله، والتقدّم العلميّ. ومن خلال عرضه لسيرته الشخصية التي شهدت في مرحلة من مراحلها معاناة شاقّة مع الإلحاد، يفتح ماكغراث أفق المسألة مع أفكار أحد أبرز الشخصيات الإلحادية في القرن العشرين، عنيانا به ريتشارد داوكينز (Richard Dawkins).

في مقدّم التساؤلات التي يطرحها اللاهوتيّ الإيرلنديّ المعاصر، تلك التي تدور حول جدوى أطروحات داوكينز المستندة إلى العلم، والتي تهدف إلى إبطال الاعتقاد بوجود الله. وعلى ما يبيّن ماكغراث انطلاقاً من تجربتهن الشخصية، فإنّ إلحاد داوكينز لم يكن حالة عارضة في مسيرته المضطربة، وإنّما كان على صلة وطيدة بعلومه المكتسبة وطريقة تفكيره المتأثّرة إلى حدّ بعيد بمناخات العُلمنة والنزعات الإلحادية التي شاعت بقوة في المجتمعات الغربية الحديثة. ولأجل ذلك يرى ماكغراث أنّ داوكينز كان جائراً في أحكامه على الدين، وأنه لم يكن يمتلك أيّة أسس برهانية في دفاعه عن آرائه، والسبب في ذلك، يعود إلى تمسّكه الدوغمائيّ بالعلم ومنهجية المادية المحضة.

\* \* \*

مفردات مفتاحية: السؤال - الاستفهام القلق - الإلحاد - داوكينز - الله - العلم - الإيمان الدينيّ.

عنوان البحث بلغته الأصليّة: L'évolution a-t-elle éliminé Dieu -

المصدر: [www.scienceetfoi.com/evolution-elimine-dieu-atheisme](http://www.scienceetfoi.com/evolution-elimine-dieu-atheisme)

- نقله من الفرنسيّة: مروان العبد الله وراجعه فريق التحرير.

## تمهيد

كنت في ما مضى ملحدًا. نشأت وترعرعت في مدينة بيلفاست، عاصمة أيرلندا الشماليّة. في الستينيّات من القرن الماضي توصلت إلى نتيجة حتميّة مفادها أنّ الله ضرب من وهم الطفولة، وملجأ للعجزة وأصحاب النفوس الضعيفة. لكنني أعترف الآن بأنّه كان رأيًا ينطوي على الكثير من السذاجة والإجحاف، وأراه اليوم محرّجًا بعض الشيء.

جانب مهم من المنطق الذي دفعني إلى هذا مثل الاستنتاج، كان يستند إلى العلوم الطبيعيّة. في الثانويّة العامّة، كنت تخصّصت في الرياضيّات والعلوم، وفي الجامعة درست الكيمياء. غير أنّ الحافز الأساسيّ لدراسة العلوم كان يعود إلى فكرة مذهلة، وهي القدرة على الدخول في عالم الطبيعة الرائع. ولقد اكتشفت أيضًا أنّ العلوم مثل الرياضيّات والكيمياء هي أفضل معين لنقد الدين، ذلك بأنّ الإلحاد والعلوم الطبيعيّة على تناغم فكريّ إلى درجة كبيرة. إلا أن هذه الأفكار بقيت راكدة إلى أن وصلت إلى جامعة أوكسفورد في أكتوبر 1971. بدءًا من تلك المرحلة الجامعة سيثبت عندي أن الكيمياء، ثمّ فيزياء الأحياء الجزئيّة، أنّهما منشطان رائعان للفكر. أحيانًا كان يتتابني اندفاع لامع نحو هذين العِلْمين، إلّا أنّ هواجسي ما لبثت أن عادت لتبرز على شكل أسئلة وجوديّة. وإلى جانب عشقي للعلوم الطبيعيّة التي فاقت كلّ التوقّعات فقد أعدت التفكير بالحدادي. ليس من السهل على أحد أن يخضع معتقداته وقناعاته للنقد، لكنني اتّخذت هذا القرار لأنني أدركت أنّ الأشياء لم تكن بالسهولة التي كنت أعتقدتها في السابق، حتى أنّ بعض العناصر تراكمت لتشكّل بالنسبة إليّ ما يُسمّى بأزمة المعتقد.

من بعد ذلك بدأت أدرك أنّ أسس الإلحاد ليست مرضية. أمّا البراهين السابقة التي بدت لي جريئة، وقويّة وحاسمة، فهي تبدو لي الآن خجولة وغير مؤكّدة. الفرص التي سمحت لي بالتكلّم مع بعض المسيحيين عن إيمانهم أثبتت أنّي لا أعرف عن هذا الدين إلّا القليل. والدين المسيحيّ الذي أعرفه مجرد وصف لبعض البيانات من قبل نقاد بارزين مثل برتراند راسل وكارل ماركس، لم يكن دقيق المنهجية في توصيفه. من جهة أخرى، أدركت وبصورة تدريجيّة أنّ فرضيّتي حول العلاقة بين العلوم والإلحاد كانت ساذجة لوافد جديد. من أهمّ الأمور التي كان يجب أن أعالجها هي الفصل المنهجيّ لهذه العلاقة، وأنّ العلوم والاعتقاد المسيحيّ تجمعهما علاقة وثيقة. كما أنّي سأحاول فهم لماذا لا يتقاسم الآخرون معي هذا الرأي.

في عام 1977، بينما كنت أجري أبحاثاً في علم فيزياء الأحياء الجزئية بجامعة أكسفورد، قرأت أول عمل لـريتشارد داوكنز، تحت عنوان "الجين الأناني" الذي صدر في العام الماضي. كان كتاباً رائعاً مليئاً بالأفكار ومظهرًا قدرات رائعة تغرس في نفس القارئ مفاهيم صعبة. كنت أقرأه بشغف. ولكن، كنت في الوقت نفسه حائراً أمام ما كنت أعتبره الإلحاد السطحيّ المرتكز بطريقة غير متوازنة على البراهين العلمية التي عرضها في كتابه. لقد بدا إلحاده كما لو كان متصلاً به بيولوجياً عبر فكره بدلاً من كونه ثمرة دليل علمي من المفترض أن يكون قد جمعها بنفسه.

### دحض أسئلة داوكنز الإلحادية

في الفترة المعاصرة سيعلم داوكنز بحزم أنه حامل راية مؤسسة الإلحاد البريطانية. لقد تحوّل الشاب اللامع في علم الحيوانات شيئاً فشيئاً إلى أهم ناقد للدين وخصوصاً الديانة المسيحية. نوعية كتاباته جعلته معارضاً بكل ما للكلمة من معنى، كما أنّ عدائته وعنفة الشري سيجعلانه معارضاً من دون منازع لكل مدافع عن المسيحية. هذا ما أودُّ طرحه والتطرق إليه من خلال مساءلة بعض أطروحاته في مواضيع العلم والإيمان، وإعادة النظر في العلاقة الفكرية بين العلم والإلحاد. وليس هدفي انتقاد علمه وإنما تحليل العلاقة بين الطرائق العلمية والإلحاد الذي يدافع عنه.

سوف أوجز في ما يلي أهم العناصر الأساسية في نقد داوكنز الإلحادي للمسيحية، ثم سأجيب عنها بإيجاز. وليس من ريب في أنّ القراء المتعظين سيجدون توضيحاً ونقداً مفصلاً عن رؤية الإلحاد عنده خلال ما قدّمته في كتابي "إله داوكنز" (Dawkins God)؛ وأمّا الذين يرغبون في نقاش معمق لهذه الرؤية، فهم مدعوون إلى مراجعة هذا الكتاب.

### أولاً: استبعاد السؤال عن الله

بالنسبة إلى داوكنز، العلم وخصوصاً فرضية دارون جعلت الإيمان بالله مستحيلًا. فقد راح يدعم فكرة أنّ العالم قبل هذه الفرضية مُصمّم من قبل الله، أمّا بعدها فقد أصبحت هذه الفكرة خيالية بالنسبة إليه. لم يكن لدارون أيُّ غرض من وراء فرضيته، ونحن واهمون إذا اعتقدنا العكس. إذاً، لا يمكن وصف الكون على أنّه سيئ أو جيد. والواقع أنّ داوكنز يدعم نظريته أنّ الكون الذي نراقبه يمثل الخصائص التي يمكن توقُّعها، ولكن في نهاية المطاف سوف نصل إلى الاستنتاج التالي: "لا هندسة، لا بشر، لا خير... ولا شيء سوى اللامبالاة العمياء والخالية من أيّ رحمة.

يرى داوكينز أن نظريّة دارون هي رؤية عالميّة أكثر ممّا هي نظريّة علميّة فقط. فلقد أتاحت له هذه النظريّة تقديم براهين أبعد من حدود العلم. وهو يدفعا بشكل خاصّ والعلوم بشكل عامّ، إلى طرح سؤال الإلحاد على نحو صريح. ولكن لماذا يؤدّي مثل هذا الاندفاع إلى خلاصة مؤدّاها أنّ الله غير موجود؟

نحن ندرك جيّدًا أنّ الطرائق العمليّة لا يمكنها اتّخاذ قرار بشأن فرضيّة وجود الله، مهما كانت الطريقة: إيجابيّة أو سلبيّة. كلُّ من يعتقد أنّه بإمكانه إثبات وجود الله فهو مخطئ فيشوّه سمعته. بعض علماء الأحياء البارزين مثل فرانسيس كولين يؤكّدون أنّ العلوم الطبيعيّة تنشئ قرنيّة إيجابيّة عن الإيمان، وآخرون (مثل جاي كولد) يعتقدون أنّها تؤثر سلبيًا في نفوس المؤمنين، ولكنهم لا يبرهنون شيئًا مهما كانت رؤيتهم. إذا كان سؤال وجود الله أمرًا يجب حسمه، فمن الضروريّ أن يكون قائمًا على أسس أخرى.

في مقالة له صدرت عام 1992 في مجلّة (Scientific American)، أصرّ عالم الأحياء الأميركيّ في ذلك الوقت، ستيفن جاي كولد، على أنّ العلوم لا يمكنها حتى بطرائقها الخاصّة أن تثبت وجود الله. يضيف: لا يمكننا كعلماء، تأكيد أو نفي هذا الوجود، ولا يمكننا حتّى بكلّ بساطة شرحه. العنصر الأساسيّ لـ كودا يمكن أن يكون نظريّة درونيّة لا تمتّ بصلة لوجود أو طبيعة الله. بالنسبة إليه يمكننا أن نجد علماء أحياء ملحدين مثل العالم الأرثوذكسيّ الروسيّ ذوب زهانسكس. أمّا ما فعله داوكينز فهو التعامل مع النظريّة الدارونيّة كطريق فكريّ للإلحاد. ولكنّ مساره الفكريّ يدلُّ على أنّه غارق هو أيضًا في الإلحاد. إذن، ثمة هوة بين النظريّة الدارونيّة والإلحاد، ومن الواضح أنّه يريد ردمها. وأمّا إذا أردنا الوصول إلى نتيجة، فقد وجب في هذه الحال، استخدام وسائل مختلفة، بليغة ومقنعة، ومن المفروض أن تكون البراهين قويّة.

### ثانيًا: الإيمان المسيحيّ كتسليم بلا دليل

حسب نظر داوكينز، أنّ المسيحيّة بنت أساسها على الإيمان، وتركت البحث الحقيقيّ المتمحور حول أدلّة إثباته جانبًا. وهكذا، فإنّ أحد أهمّ طروحاته التي ترد باستمرار في كتاباته، هي تلك القائلة بأنّ الإيمان في الدين هو ضربٌ من الثقة العمياء، ولا تقوم على الأدلّة سواء كانت عقليّة أم حسّيّة. الواضح أنّ داوكينز يدعم فكرة نعت الإيمان بأنّه نوع من الأمراض العقلية، أو هو آفة الكون، بل

ويمكن مقارنته بفيروس الجدري ومن الصعب القضاء عليه. غير أن الحقيقة هي أبسط من ذلك. لقد كنت متيقناً في حينها بمثل هذه الأفكار، ذلك لأنني كنت مُلحداً واعتبرت براهينه مقنعة. أما اليوم فقد تغيرت نظرتي، وصرت أرى بشيء من السخرية لقوله أن الإيمان هو الثقة العمياء، أو أنه لا يكثر بالأدلة الثابتة، بل ويتجاهل حتى الأدلة المعارضة.

لنبدأ الآن بمجموعة من الاستفهامات: أولاً، بمعاينة هذا التعريف للإيمان ومن أين مصدره. ثم لماذا علينا القبول بهذا التعريف اللامنتقي؟ وبالتالي، من قال إن هذا التعريف منسوب إلى المؤمنين؟ يبدو أن داوكينز غير واضح في هذه النقطة، وبالتالي لا يعرض أي كاتب ديني ليبرر هذه التعريف غير المنطقي. وهذه الطريقة غير المبررة تحول الإيمان إلى نوع من المهزلة الفكرية. في الواقع، لا يمكنني قبول هذه الفكرة، ولم أجد مفكرين دينيين اعتمدوها. هذا التعريف لا يمكن الدفاع عنه من جانب أي طائفة مسيحية. وهو خاصٌ بداوكينز، وجزء من استراتيجية تهدف إلى النقد. في هذا المجال، نشير إلى أنه من المقلق بالنسبة إليه أن يعتقد بحزم أن الإيمان يعني الثقة العمياء، علماً أن هذا التعريف لا يتبناه أي كاتب مسيحي.

هذا ما قد يعتقد داوكينز بعكس المسيحيين الذين لا يفكرون بذلك. وفي هذا الموضوع يقدم غريفيث توماس (W. T. Griffith-Thomas) (1924-1861) تعريفاً للإيمان المسيحي التقليدي الطويل باعتباره المفتاح إلى استفهام عن كل ما يتعلق بالطبيعة البشرية. فهو يبني على تصور فكري راسخ، ويقوم على الأدلة المقنعة المتأني من الثقة بالقلب والمشاعر التي أسست على الإيمان، وتوجت بالإرادة التي تصر على هذا الإيمان والثقة من خلال منطق الحياة.

هذا التعريف المنطقي جداً يجمع العناصر الأساسية للفهم المسيحي للإيمان. وهذا الإيمان "يبدأ مع قناعة فكرية تقوم على الأدلة المقنعة". لذا لا أرى فائدة من إشغال القراء بالنصوص المسيحية اللا متناهية المقتبسة من جميع الفترات الزمنية والعصور لدعم وجهة النظر هذه. ففي كل الحالات تبدو محاولات داوكينز آيلة إلى الخيبة لجهة تشويه التعريف المسيحي للإيمان.

الإيمان طفولي، كما قيل لنا، والأفكار الجميلة غالباً ما تترك فينا الأثر المديد طيلة العمر. ولكن من الأفكار ما هو غير أخلاقي وشنيع ومضحك. أما الآن، فقد نمونا وعلينا أن نتقل إلى أسئلة أخرى من قبيل: لماذا نؤمن بأمور لا يمكن تفسيرها علمياً؟ خلافاً لما يزعم داوكينز من أن الإيمان بالله هو مثل الإيمان بـ "سانتا كلوز" أو الجنّيات. عندما تكبرون سوف يمر عليكم مثل هذا

الزعم مرور الكرام، وهذه الحجّة جديرة بهاو، ولكنّها غير مقنعة أبداً. لا توجد دراسة جادة تظهر أنّ الناس لا ينظرون بالطريقة نفسها إلى الله. ولقد توقّفت عن الاعتقاد بـ"سانتا كلوز" وبالجنّيات عندما كنت في السادسة من عمري. وبعد إلحادي بوضع سنوات، اكتشفت الله عندما صرت شاباً. لم أنظر قطُّ في ذلك الانحدار إلى مرحلة الطفولة. وخلال قيامي ببحث لكتابي "غسق الإلحاد" (le crépuscule de l'athéisme)، لاحظت أنّ الكثير من الناس وصلوا إلى الاعتقاد بالله في مرحلة متأخرة من حياتهم، إلّا أنّني لم ألتق أحداً يؤمن بـ"سانتا كلوز" في المرحلة ذاتها.

إذا كانت حجّة داوكينز «المسطّحة» مقبولة، فإنّه سيستعين بوجود تشابه حقيقيّ بين الله و«سانتا كلوز»، وليس هذا هو الوضع إطلاقاً. من الواضح أنّه لا يمكننا أن نضع في الفئة نفسها الإيمان بالله والمعتقدات الطفوليّة. حسب داوكينز إنّ هذه المعتقدات قابلة للمقارنة مع غيرها في كيان غير موجود. ومع هذا، فإنّه يرتكب خطأً بدائياً لجهة أنّ براهينه لا تسمح بإدراك نهاية الفرضيات الحججيّة. يا لها من سخريّة، حين يأخذنا فهمه للإيمان المسيحيّ إلى حصره في الإيمان الذي يأخذنا به عالم «سانتا كلوز». لكن لسنا نرى عجباً حين نعرف أنّ هذا الفهم للإيمان هو نفسه الذي بنى عليه تراثه الفكريّ في جامعته الخاصّة، وخصوصاً في موادّه العلميّة. ولا بدّ من القول أنّ دور الفلاسفة المسيحيين في ظهور العلوم البيولوجيّة كان في النهاية موثقاً بطريقة جيدة. أمّا الثقة التي يمضي إليها داوكينز من أنّه لا مهرب من الإلحاد، فهي أمرٌ لافت جدّاً. هذه الثقة الغريبة تبدو متهافئة بشكل واضح، وقد لا تكون على صلة تماماً كتلك المألوفة في فلسفة العلوم. وقد أشار ريتشارد فاينمان (1918-1988) (Richard Feynman)، الحاصل على جائزة نوبل للفيزياء عام 1965، إلى أنّ المعرفة العلميّة هي جسد من الاعترافات حيث تكون مستويات اليقين فيها غير ثابتة. بعض هذه التصريحات غير مؤكّد، وبعضها الآخر شبه مؤكّد، ولكنّ أيّاً منها لم يصل إلى الإثبات المطلق.

### ثالثاً: فكرة الإله الحداثويّ أو فيروس العقل

حسب الأطروحة الوضعانيّة لداوكينز أنّ فكرة الله هي العدوى الخبيثة التي تصيب عقول الأصحاء. والحجّة الأساسيّة التي يبديها وعدد من نظرائه، تقوم على أنّ الإيمان بالله لم يكن نتيجة لأسباب منطقيّة أو مقنعة، وإنّما هي نتيجة العدوى بفيروس مُعدٍ وخطير، مماثل لتلك التي تلحق الفوضى بشبكات الكمبيوتر. هذه الصورة بدت قويّة، حتّى إذا كانت القاعدة الحججيّة والتجريبيّة ضئيلة. ورغم كلّ هذا تبدو الفكرة في وضعٍ انحداريّ بسبب غياب الأدلّة التجريبيّة.

ليس ثمة من دليل يمكن ملاحظته لتبرير الأفكار المماثلة للفيروسات، أو التي قد تنتشر مثلها، ولكن داوكينز يغفل بطريقة مقلقة عن هذه القضية الحساسة حتى سيكون من الصعوبة بمكان معالجتها. لا جدوى من الحديث عن شكل من أشكال الفيروسات التي يمكن أن تكون جيّدة بشكل وسيئة بآخر. في حالة العلاقة بين المضيف والطفيليات، هو مجرد التطور الداروني في العمل. إنّ الأمور كما أراها ليست جيّدة أو سيّئة. وإذا كنّا نستطيع مقارنة الأفكار بالفيروسات، بالتالي لا نستطيع أن نصفها بالجيّدة أو السيّئة، حتى من ناحية أخرى بالصحيحة أو الخاطئة. هذا من شأنه يؤدي إلى استنتاج مفيد: إنّ جميع الأفكار تتطور على أساس نجاح نشر التكاثر الصافي بينهم. وبعبارة أخرى، قدراتهم على الانتشار ومعدّلات بقائهم على قيد الحياة.

يمكن تفسير العلوم الطبيعيّة من خلال الإلحاد أو الإيمان بالله، ولكنّه لا يتطلّب أيّاً من هذه التفسيرات. وإذا اعتبرنا أنّ كلّ الأفكار هي فيروسات فإنّه من المستحيل التفريق بين الإلحاد والإيمان بالله على قواعد علميّة. آليّة النشر المقترحة لا تسمح بتقييم استحقاقهم الفكريّ والمعنويّ. الأدلّة ليست بحاجة لا إلى الإيمان بالله ولا إلى الإلحاد من أجل أن تستمرّ. ولكن يمكنها أن تفضّل واحداً عن الآخر. ذلك يعود إلى أنّ قيمة بعض الأفكار يمكن أن تبنى على قواعد أخرى، وإذا كان ذلك ضرورياً، فهذه القواعد ينبغي أن توجد خارج نطاق المنهج العلميّ.

ولكن، أين سنجد أدلّة تجريبية لفرضيات «فيروس العقل»؟ في العالم الواقعيّ، الفيروسات ليست معروفة فقط من خلال أعراضها، ويمكن كشفها بعد إخضاعها لتحقيقات تجريبية صارمة وبنيتها الجينيّة توصف في غضون دقائق. في المقابل، فإنّ «فيروس العقل» ليس سوى افتراض. وهذا الافتراض يستند إلى حُجّة قياسية مشكوك فيها، وليس على الملاحظة المباشرة، وإنّه بالضبط مفتري من وجهة نظر تصوّري على قاعدة السلوك الذي يقترحه داوكينز. هل لدينا إمكانيّة مراقبة لمثل هذه الفيروسات؟ ما هو هيكلها وموقعها في جسم الإنسان؟ وأمّا النقطة الأهمّ عنده فهي: انتشارها، وكيفية انتقالها.

يمكننا أن نلخص هذه الأسئلة في ثلاثة موضوعات عامّة:

1 - الفيروسات الحقيقيّة تكون مرئية، تحت المجهر. أمّا الفيروسات الثقافيّة والدينيّة الخاصّة بداوكينز فإنّها مجرد فرضيات. وبالتالي، لا يوجد أيّ دليل يمكن ملاحظتها من خلاله.

2 - ليس ثمة من دليل تجريبي يبين أن الأفكار هي مجرد فيروسات. قد «تتصف» الأفكار في بعض النواحي كما لو كانت كذلك، إلا أن ثمة فجوة كبيرة بين التشبيه والهوية. وبما أن تاريخ العلم قد تمكن من توضيحه بألم في الماضي، فقد بدت العلوم بالاستناد إلى الافتراضات الخاطئة كما لو كانت هوية.

3 - «الله هو فيروس» كما يزعم داوكينز، يُعدُّ مبدأً صالحاً تماماً للإلحاد. هناك رؤية أخرى من العالم أبعد من الأدلة التجريبية. وبطبيعة الحال، هو يرفض إجازته لأنه يعتبر الإلحاد نتيجة حتمية ومناسبة للمنهج العلمي السليم. ولكن هذا ليس هو الحال. ويمكن تفسير العلوم الطبيعية سواء من خلال الإلحاد أم التوحيد؛ ما يعني أنها لا تحتاج إلى أي من هذه التفسيرات.

#### رابعاً: إقصاء الدين أساس الرؤية الإلحادية

هنا، أود أن أتوجّه نحو أطروحة أساسية تتخلل جميع كتابات داوكينز مؤدى هذه الأطروحة ما يلي: إن الدين هو سيئ في حد ذاته، ويؤدي إلى أشياء سيئة أخرى. ومن الواضح أن كل هذا يعود إلى حكم قيمة في المجالين الفكري والأخلاقي:

أولاً، يرى داوكينز إلى الدين بوصفه معطى سيئاً لأنه قائم على الإيمان الذي يلغي برأيه كل شروط التفكير البشري. لقد رأينا بالفعل أن هذا الرأي موضوع مناقشة، ولا يمكن أن يستمر في ظل وجود أدلة.

ثانياً، المنظورة الأخلاقية هي بالطبع الأكثر أهمية. أتصور أن الجميع سيتفق حينها على واقع أن بعض المتدينين يفعلون أشياء غريبة جداً. ولكن إدخال هذه الكلمة الصغيرة «بعض» إلى براهين داوكنس يُخفّف فوراً من تأثيرها. استعمال هذا المصطلح يؤدي إلى سلسلة من الأسئلة النقدية. كيف؟ تحت أي ظروف؟ على أي موجة؟ كما تفرض سؤالاً مقارناً: كم شخصاً ضد الدين يتصرفون بغرابة أو يقومون بأشياء غريبة؟ في البداية، مع طرح هذا النوع من الأسئلة، فإننا نهرب من إغراء هذه الهجمات الرخيصة للمعارضين لأفكارنا، ويضطر المرء للتعامل مع الصدق في بعض الجوانب المظلمة والمثيرة للقلق في الطبيعة البشرية.

إذاً، خلال عصر معين، كان شائعاً في أوروبا العلمانية أن الدين هو نوع من الأمراض النفسانية. ولكن بعد سيغموند فرويد (Sigmund Freud)، أخذت هذه الشائعة بالتراجع بسبب تزايد الأدلة

التجريبية تاركة إجابات عدة لم تكن تنطوي على منهجية واضحة. مع ذلك، لا بدّ من القول أنّ مختلف أشكال الدين قد تكون مفيدة للإنسان، في حين أنّ بعض أشكال الدين يمكن أن تعتبر مرضاً ومدمرة في الوقت ذاته. بالطبع، هذه الشهادة لا تسمح لنا بأن نستنتج وجود الله، إلاّ أنّها تشكّل ركيزة أساسية في منظومة داوكينز الملحدة.

في هذا المضمّار، يُظهر الاستطلاع الذي أجري في العام 2001 على 100 دراسة علمية حول العلاقة بين الاختيار الديني والرفاهية الحصيلة التالية:

- تسعٌ وسبعون دراسة تفيد على الأقلّ بوجود علاقة إيجابية بين الدين والرفاهية.

- ثلاث عشرة دراسة لا تحدّد أيّ ارتباط معيّن بين الدين والرفاهية.

- سبعٌ دراسات تجد جماعات معقّدة بين الدين والرفاهية.

- دراسة واحدة تكشف وجود ارتباط سلبيّ بين الدين والرفاهية.

من الواضح أنّ مجمل رؤية العالم لداوكينز تعتمد على هذه العلاقة السلبية بين الدين ورفاه الإنسان، حيث أكّدت بشكل واضح 1% فقط من النتائج التجريبية، وكذلك دحضت بصراحة 79% منها.

ينبغي القول أنّ النتائج التي مرّت جديرة بتوضيح وبيان نقطة محورية هي التالية: نحن بحاجة إلى معالجة هذه المسألة في ضوء شهادة علمية، والتحيزات ليست شخصية. لا أودّ اقتراح أنّ فكرة هذه الشهادات تثبت بوضوح أنّ الإيمان هو أمرٌ جيّد للإنسان عموماً والإنسان الأوروبيّ بصفة خاصّة. حتى مناقشة أنّ هذا يدلّ على وجود الله، ولكنّ شيئاً واحداً، وبالتأكيد، لداوكينز، أنّ العالم يقوم على الاعتقاد الأساسيّ بأنّ الإيمان هو سيّئ بالنسبة إلى الرجل. وهذا الرأي لا يمكن الدفاع عنه في ضوء الأدلّة. هل الدين يكون شيئاً للإنسان؟ أين الأدلّة؟ هذه الفكرة تتلاشى حالياً بشكل متدرّج، ولا من أحد يثبت العكس.

يزعم داوكينز أنّ الإجابات على الأسئلة الوجودية بسيطة، ثمّ يسأل بسخرية: هل تعطون أهمية أكبر للصحة أم للحقيقة؟ بما أنّ الدين باطل، فإنّه من غير الأخلاقيّ أن نكون مؤمنين، بغضّ النظر عن المكتسبات. غير أنّ ادعاءات داوكينز بشأن زيف الإيمان بالله لا تلبث أن تذوي وتضمحلّ. إلاّ أنّها مع ذلك تثير في الآن عينه أسئلة مقلقة جدّاً عن صحّة أو عدم صحّة مدّعيّاته.

## الاستنتاج:

خلاصة ما ذهب إليه في هذه المقالة، أنني ناقشت الانتقادات الرئيسية التي أثيرت ضد الدين بشكل عام، وخصوصاً ضد المسيحية. أنا لم أعرض جميع ما قدمه داوكينز من حجج تفيد مسلكه الإلحادي، كذلك لم أعرض إجاباتي على نحو عام، على أمل أن تكون هذه المقابلة المقتضبة قد ساعدت القراء في الحصول على فكرة عن رهانات النقاش.

استنتاجي بسيط، وأعتقد أنه أيضاً من غير نزاع. كان داوكينز يدعم فكرة أن العلوم الطبيعية تقودنا إلى الإلحاد، من خلال إطلالته غير الشرعية على المنهج العلمي. هذا مع الإشارة إلى أن مثل هذه الإطلالة لم تحصد أي رصيد من المجتمع العلمي الذي ينتسب إليه داوكينز. هذا الرأي يستحق أن يتواجه مع السير بيتر مدور، الذي حصل على جائزة نوبل في الطب في السنوات القليلة الماضية. يقول هذا الأخير: إن وجود حد للعلوم يثبت عدم قدرة داوكينز على الإجابة عن الأسئلة الابتدائية الصبائية المتعلقة مع أحداث البدء الكوني ومنتهاها. من قبيل: لماذا نحن هنا؟ ما هو معنى الحياة؟ ومع ذلك كله، أزعج أن شرط الذكاء العلمي هو استكشاف دقيق ومحترم لحدود هذا الذكاء.